أسطورة

إلى صديقي شفيق معلوف

كَـــانَ مَـــا كَـــانْ
فِـــي رُبَـــى لُـــبْـــنَـــانْ

* * *

شَـــاحِـــبٌ كَـــالـــطَّـــيْـــفْ
أَهْـــيَـــفُ أَسْـــمَـــرْ
ضَـــامِـــرٌ كَـــالـــسَّـــيْـــفْ
أَوْ أَضْـــــــمَـــــــرْ
خَـدَرُ الـرُّؤْيَـا عَـلَـى عَـيْـنَـيْـهْ
وَارْتِـعَـاشُ الْـحُـبِّ فِـي فَـمِـهِ
عَـرَقُ الْـوَحْـيِ عَـلَـى صُـدْغَـيْـهْ
فَـــاضَ مِـــنْ دَمِـــهِ
قَـلْـبُـهُ، مَـا أَبْـعَـدَ الْآثَـامْ
عَـنْ هَـوَاهُ عَـنْ لَـيَـالِـيـهِ
وَالْـهَـوَى إِنْ رَاحَ يُـخْـفِـيـهِ
حَـدَّثَـتْ عَـنْ سِـرِّهِ «الْأَحْـلَامْ»
وَأَغَـــانِـــيـــهِ

وَالْـــحَـــوَرْ سَـــهْـــرَانْ
مُـــوهَـــنَ الْـــخَـــصْـــرِ
وَالْـــقَـــمَـــرْ سَـــكْـــرَانْ
فِـــي الـــنَّـــهْـــرِ
وَالـــرُّبَـــى أَلْـــوَانْ
كَـــانَ مَـــا كَـــانْ

* * *

بَـــكَّـــرَ الْـــعُـــصْـــفُـــورْ
دُونَ مِـــيـــعَـــادِ
وَاسْـــتَـــفَـــاقَ الـــنُّـــورْ
فِـــي الْـــوَادِي
وَالـصَّـبَـا لَـمَّـا تَـزَلْ سَـكْـرَى
تَـخْـبِـطُ الـدَّوْحَ وَتَـمْـرُدُهُ
وَبِـرِفْـقٍ تَـعْـطِـفُ الـنَّـهْـرَا
لَا تُـــجَـــعِّـــدُهُ
وَالنَّدَى يَصْحُو عَلَى الْعُنْقُودْ
فَـكَـحُـلْـمِ الـطِّـفْـلِ مَـبْـسِـمُـهُ
وَشِـفَـاهُ الـشَّـمْـسِ تُـطْـعِـمُـهُ
وَتُـرَوِّي كَـنْـزَهُ الْـمَـرْصُـودْ
حِـيـنَ تَـلْـثِـمُـهُ
وَالـــدُّمَـــى الْأَجْـــفَـــانْ
وَالـــشَّـــذَا الْـــعَـــابِـــرْ
كُـــلُّـــهَـــا أَلْـــوَانْ
لِـــلـــشَّـــاعِـــرْ
كُـــلُّـــهَـــا أَلْـــحَـــانْ
كَـــانَ مَـــا كَـــانْ

* * *

هَـــــذِهِ الْأَلْـــــوَاحْ
فِـــي رُبَـــى زَحْـــلَـــهْ
كَـــالْـــهَـــوَى وَالـــرَّاحْ
وَالْـــــقُـــــبْـــــلَـــــهْ
جِـنَّـةُ الْأَظْـلَالِ تَـرْسُـمُـهَـا
وَعَـرُوسُ الـنُّـورِ تُـحْـيِـيـهَـا
عَـبْـقَـرٌ، حَـتَّـى جَـهَـنَّـمُـهَـا
عَـرَّشَـتْ خَـضْـرَا بِـوَادِيـهَـا
دَرَجَـتْ فِـيـهَـا مُـخَـيَّـلَـتُـهْ
شَـاعِـرُ الْأَحْـلَامِ وَالْـحُـبِّ
وَارْتَـوَتْ مِنْ نَـهْـرِهَـا الْـعَـذْبِ
تَـأْخُـذُ الْأَصْـبَـاغَ أَخْـيِـلَـتُـهْ
مِـــنْ دَمِ الْـــقَـــلْـــبِ
حُـــبُّـــهُ الـــنَّـــشْـــوَانْ
مِـنْ جَـنَـى الـسِّـحْـرِ
غَـــائِـــمٌ سَـــهْـــرَانْ
لِـــلْـــفَـــجْـــرِ
ذَاهِـــلٌ حَـــيْـــرَانْ
كَـــانَ مَـــا كَـــانْ

* * *

غَـــرَّبَ الـــشَّـــحْـــرُورْ
وَالـــنَّـــوَى جُـــرْحُ
فَـالْـمَـسَـا مَـهْـجُـورْ
وَالـــصُّـــبْـــحُ
قَـالَـتِ الْأَغْـصَـانُ لِـلـنَّـهْـرِ
ذَاتَ يَـوْمٍ: «أَيْـنَ شَـادِيـنَـا؟
مَـا دَهَـى حُـلْـقُـومَـهُ الـسِّـحْـرِي

لَا يُـغَـنِّـيـنَـا؟»
وَالـسَّـوَاقِـي قُـلْـنَ لِـلـزَّهْـرِ:
«أَيْـنَ مَـنْ كَـانَ يُـنَـاجِـيـنَـا
يَـمْـلَأُ الْـوَادِي تَـلَاحِـيـنَـا؟
مَـا دَهَـاهُ؟ فِـيـمَ لَا يَـجْـرِي
ظِـلُّـهُ فِـيـنَـا؟»
وَالْـهَـوَى الـظَّـمْـآنْ
قَـالَ لِـلْـبَـانِ:
«لَا أَرَى مَـنْ كَـانْ
يَـرْعَـانِـي!»
فَـأَجَـابَ الْـبَـانْ:
«كَـانَ مَـا كَـانْ»

* * *

عِـشْـتِ يَـا أَغْـصَـانْ
عِـشْـتَ يَـا نَـهْـرُ
الْـهَـوَى رَيَّـانْ
وَالـشِّـعْـرُ
فَـالدُّمَـى فِـي الْـكَـرْمِ نَـاهِـدَةٌ
وَعَـلَـيْـهَـا الـطَّـلُّ فِـي حَـرَمِ
كَـرِضَـاعِ الْـحُـبِّ جَـامِـدَةٌ
نُـقَـطٌ مِـنْـهُ عَـلَـى الْـحَـلَـمِ
وَرَشَـاشُ الْـعِـطْـرِ وَالْأَنْـغَـامْ
وَخَـرِيـرُ الْـجَـدْوَلِ الْـكَـوْثَـرْ
وَالْـحَـلِـيـبُ الْـخَـمْـرُ وَالْـعَـنْـبَـرْ
حُـمِـلَتْ مِـنْ شَـاطِـئِ «الْأَحْـلَامْ»
لِـذُرَى «عَـبْـقَـرْ»
فَـالْـمَـسَـا الْـمَـلْآنْ

مِـــنْ دَمِ الْـــكَـــرْمِ
لَـــمْ يَـــزَلْ يَـــهْـــمِـــي
مِـــثْـــلَـــمَـــا كَـــانْ

* * *

بِـــبَـــنَـــانِ الـــنُّـــورْ
لَـــمْ يَـــزَلْ هَـــارُوتْ
يَـــفـــرِشُ الْـــيَـــاقُـــوتْ
فِـي الْـمَـدَى الْـمَـسْـحُـورْ
وَعَـلَـى هَـوْدَجِـهِ الْـهَـادِي
يَـنْـفُـثُ الـلَّـيْـلُ مَـصَـابِـيـحَـهْ
وَسَـريـرُ الْـحُـبِّ فِـي الْـوَادِي
لَـمْ يَـزَلْ لِـلْـطَّـيْـرِ أُرْجُـوحَـهْ
كُـلُّ مَـا مَـرَّ بِـنَـا يَـبْـقَـى
ثَـابِـتَ الـلَّـوْنِ كَـمَـا كَـانَـا
إِنَّـمَـا الْأَرْوَاحُ أَحْـيَـانَـا
حَـسْـبَـمَـا تَـسْـفُـلُ أَوْ تَـرْقَـى
تُـكْـسِـبُ الْأَشْـيَـاءَ أَلْـوَانَـا
وَالْـــهَـــوَى إِيـــمَـــانْ
لَـــمْ يَـــزَلْ نَـــاضِـــرْ
فِـــي دَمِ الـــشَّـــاعِـــرْ
مِـــثْـــلَـــمَـــا كَـــانَ

* * *

فِـــي رُبَـــى الْأَسْـــرَارْ
حَـــيْـــثُ لَا شَـــهْـــوَهْ
قَـــالَـــتِ الْأَزْهَـــارْ
لِـــلـــرَّبْـــوَهْ:
«انْـظُـرِي عَـيْـنَـيْـهِ، يَـا أُمِّـي

فَـالْـهَـوَى بَـاقٍ بِـعَـيـنَـيْـهِ
جَفْنُهُ، كَمْ ذَابَ فِي حُلْمِي
كُـحْـلُ جَـفْـنَـيْـهِ
مَا أُحَيْلَى هَذِهِ الْخَلْوَهْ!
... هَلْ سَمِعْتِ الْحُبَّ، يَا أُخْتِ؟
عَادَ مُشْتَاقًا كَمَا عُدْتِ»
فَأَجَابَتْ أُمُّهَا الرَّبْوَهْ:
«عَادَ يَا بِنْتِ
قَلْبُهُ الْوَلْهَانْ
هَكَذَا كَانَا
عَادَ وَلْهَانَا
مِثْلَمَا كَانْ!»